كتاب اولادي — (تابع ما قبله)

الا وكان احزم الرأي صلب الارادة شديد العزيمة . ومما يحضرنا من الامثلة على ذلك ان نابوليون بالرغم عن قوة ارادته وشدة بأسه وتفوقه الحربي كان الفشل نصيبه عندما اصطدم بارادة بلوخر وولنجتون التي لا تتزعزع فلو كان احد هذين القائدين اضعف ارادة مما كان لانقلب انكسار الفرنسويين في واترلو الى نصر واستبدلت تلك الصحيفة السوداء في التاريخ بصحيفة بيضاء . ولا يحسبن القارىء الكريم اننا نرجم بالغيب او نلقي الكلام جزافاً بناء على الحدس والتخمين بل هي الحقيقة التي لا ريب فيها . ذلك ان الفرق الانكليزية كانت اخذت تتزحزح عن مراكزها امام حملات عساكرنا الصادقة وقد هممت بالانهزام لو لم تثبتها في اماكنها الى المساء عزيمة قائدها ولنجتون الملقب عن حق بالدوق الحديدي حتى وافاه بلوخر فانجده وتبسم لهما ثغر النصر وعدنا بالفشل والانكسار وهكذا يكون حزم الارادة قد انتصر على علم القيادة

وفي التاريخ كثير غير ذلك من الامثلة والعبر مما هو اعرف من ان يستشهد به لشدة شيوعه . فالكل يعرفون ما كان من امر ذلك المعلم الذي كان يحاول ان يثبت لتلاميذه المذهب الذي من شأنه نفي الالم اذا فاجأته نوبة شديدة من داء النقرس الذي كان يشكو منه فلم يبالِ بها مستعيناً بقوة الارادة للتغلب على الالم

وقد اخبر غوث اشهر شعراء الالمان عن نفسه قال اوجدتني ظروف

الحياة في وسط تفشت فيه حمى خبيثة وبائيـة وكانت تتهددني العدوى من كل جانب فلم انج منها الا بفضل الارادة

والارادة اذا فعلت فعلاً مستمراً تحت اشراف الفهم والعقل وكانت تامة السيطرة على الانسان تصبح فيه خلقاً من اخلاقه وما الرجل ذو الخلق في الحقيقة الا صاحب الارادة والحزم والشجاعة وهذه الخلال هي لعمري اجمل وانفع ما يتحلى به الافراد في الهيأة الاجتماعية

وكل ما قيل عن مفاعيل الارادة يقـال بالمثل عن الخلق الذي لا بد منـه لسعادة الانسان ولاسعاد غيره والتجمل بالصلاح فالخلق هو الذي يكوّن الانسان تكويناً ادبياً وعقلياً بل يكون الحياة وهو ذو سلطان نافـذ في الحالتين الداخلية والخارجية . الا ترى ان صاحب الخلق يكبر كل يوم بعقله ويسير راقياً حتى يبلغ قمة الـكمال

ان بين الطريقين المفتوحتين امامنا وهما طريق الخير وطريق الشر يوجد فرق وهو ان التـأني هين المسلك اذ هو منحدر يكفي لمن اراد ان يستسلم اليه ليندفع سريعاً الى الهـاوية واما طريق الخير فهو اشد وعورة ويقتضي اجتيازه جهداً متواصلاً وارادة مستمرة وبالجملة فهو يحتاج الى الخلق

وليس بالامر الهين ان ينصرف الانسان بكليته الى تهذيب نفسه ورفعها الى ذروة الـكمال فيلتمس الكريم من الفضائل والمحامد فيزدان به والفاسد من العـادات والرذائل فيقلع عنه بل انه عمل شاق يعرف له اول ولا يدرك له اخر ولـكنه جزيل العائدة بالخير على الانسان نفسه فضلا عما فيه من النفع المزدوج للغير سواء جاء عن طريق القدوة الصالحة والارشاد او كان بواسطة القول او الفعل

ولا شيء يثني صاحب الخلق عن متابعة عمله هذا الشريف فهو يقيم على انجازه مستلهماً وحي الضمير مسترشداً بالعقل خاضعاً لنواهي الارادة واوامرها . ثم هو يتحدى ذلك الامبراطور الفيلسوف بان يجيل نظرة التأمل ويبعث رائد الفحص والتروي فيما كان من اعمال نهاره كل يوم معتبراً بما شهدته عيناه وسمعته اذناه ووعاه الفكر مستمداً من كل ذلك نشاطاً جديداً وعزماً قوياً لمكافحة الاقران ومغالبة حوادث الزمان والفوز في معترك الحياة واذا انقضى يوم ولم يتمكن فيه من نفع لنفسه او غيره فليعتبره يوماً ضائعاً غير محسوب من العمر

ولا شك ان المجلي في حلبة السباق الذي لابد منه في الحياة انما هو صاحب الارادة وهي درع يقتحم بها الاخطار على غير وجل ولا رهبة فلا يذللها الا وقد زاد رفعة وعلواً ونفعاً وفاز من تحقيق آماله باوفر نصيب

ولقد يصيب المرء من النجاح والسعادة اذا استعان بخلقه اكثر بكثير مما يطمع فيه لو قصر اعتماده على ذكائه او حظه وان افضل ما يتمنى لمن يود نجاحه في الحياة ويكون حقيقاً به ان يرزق خلقاً مصقول الحدين فاذا تم له ذلك كان ما يزيد عليه من الكمالات فيضاً من لدن الرحمن

هذا عين ما يتمناه الانسان لبلاده بان يكثر فيها عديد هذا الفريق من الناس اصحاب الاخلاق . فلتبادر الناشئة الى تحقيق هذه الامنية وهذا الرجاء بترويض الارادة وتدريب النفس على المناقب المحمودة والفضائل الحقة

ومن يدقق النظر في احوال الامم الجانحة الى الزوال الاخذة باسباب التلاشي يجد ان الذي يعوزها ليسوا هم اهل العقل والفهم بل بالعكس اصحاب الخلق القويم والارادة المتينة . ولئن تكن بلادنا لم تبلغ بعد والحمد

لله درجة يتسع معها مجال الخوف والخشية عليها ولكن حذار حذار مما اصبحت بوادره نذيرة بسوء المغبة وسوء المصير فان اصحاب الاخلاق اصبحوا في حياتهم العمومية موضعاً للتهمة والمظنة واغراضاً لسهام الطعن والمضايقة والنكاية حتى ان الذين يناصبونهم العداء لا يثنون عن حملاتهم الا وقد ثنوهم عن الاعمال وزحزحوهم عن مناصبهم هذا اذا لم يتخلوا عنها من تلقاء انفسهم . ومن العبث ان نبين ما يترتب على مثل هذه الخطة الخرقاء من الخطر الذي يلم بالامة . اما الشعب الانكليزي فله في قدر الرجال اعتبار اخر ذلك انه ينظر الى الاخلاق لا سواها وللدلالة على ذلك يكفي ان نتطلع الى ما يجري في مدارسنا والى ما يجري في مدارس انكلترا عند الحاجة الى منح جائزة غير عادية فان الجائزة تمنح عندنا الى التلميذ المشهود له بانه اوفر رفاقه عقلاً واشدهم ذكاء واما عند الانكليز فانها تصيب من يمتاز بتفوق اخلاقه على سائر رفاقه . ومن البديهي ان الحق ليس في جانبنا فيما نحن مصطلحون عليه

ومعاذ الله ان اقصد في كلامي الى ان ابن بلادي عطل من مكارم الاخلاق بل يوجد عنده اتم الاستعداد لان يكون قوي الارادة وفيه من بذار النشاط والهمة ما لا يعوزها الا القليل من العناية والتعهد لتكون دوحة باسقة الفروع وارفة الظل وافرة الثمار

واذا ثبت لنا ان الرجل الذي خلق مفتول العضد شديد الساعد يحتاج الى ان يديم الحركة لتمرين اعضائه وتقويتها والا تهدده الوهن وتولاه الانحلال فلم لا تكون الحال كذلك مع القوى العقلية والقياس واحد؟

واذا كنا ننصرف في زمن الصغر الى تثقيف عقولنا فمتى يكون اذن الزمن الذي ننصرف فيه الى تهذيب اخلاقنا ؟

انه لقد آن للشبيبة التي اوجه اليها كلامي هذا ان تعمل لاجل هذا التهذيب الادبي الاخلاقي وان تنزله في المكان الاول من اهتمامها وعنايتها

ولا بد من العزم والثبات لمن حاول ان يتعلم الارادة وهي تقتضي ممارسة مستمرة لا يعتورها ملل ولا يتخللها استكانة حتى تبلغ بصاحبها الى الغاية التي يطمح اليها وهي ان يكون كريم الخلق مسيطراً على نفسه جديراً بان يدبر شؤون حياته وان يكون العامل في توفير اسباب السعادة له ولغيره وان يقوم بخدمة بلاده الخدمة الصادقة التي تعود عليها بالعز والفخر

فاذا عقدت العزم الاكيد ايها القارئ الكريم على العمل لبلوغ هذه الغاية فتذكر الكلمات الاولى من هذا الفصل وهي قولي تعلم ان تكون صاحب ارادة

﴿ الفصل الثاني ﴾

(الواجب)

هب ان الانسان استوفى الشرط الاول الذي لا بد منه واصبح صاحب سلطان على نفسه وصارت ارادته خلقاً فيه بعد ما انحل عنها عقال الضعف واجاد صقلها وتقويتها التمرين والممارسة فما الذي ينصرف اليه جهده وما الذي يوليه شطر ارادته ؟ لا شك انه سيوجه جل رغبته للعمل بموجب

ما يوحيه اليه العقل والضمير والقيام بما تقتضيه الحياة . وهنا نعيد عليه ما سبق لنا قوله وهو : اما وقد عرفت كيف تريد فاعمل ما هو واجب عليك واعلم ان الارادة ليست الا ارادة وهي وان تكن من الاهمية بمكان فان قيمتها تكون بمقدار ما تنتجه وما تحدثه من آثارها فان انتجت الخير وهو ما يجب التماسه فقد كان هو الواجب واي شيء اجمل واشرف مما يحويه معنى القيام بالواجب بل هي كلمات يطول دويها اذا وقعت في الاذن وان لفظت ملأت النفس عواطف سامية من السكينة والاقدام وحب التضحية حتى ليخيل لي انه لا يصح ان يتناولها شرح او تأويل دون ان يقل من قدرها او يذهب من رونقها او ينزلها من المكانة العليا التي هي نازلة منها في الصميم . اننا لو حاولنا تحديد الواجب ما هو لما زدنا امراً جديداً على ما تشعر به انفسنا بشأنه . فلو اعدنا هنا ما تكرر لنا سماعه من ان الواجب هو ما حتمت بقضائه الشريعة او الضمير او قلنا ان الواجب هو وصية العقل ومبدأ العمل القائم على الشريعة الادبية فما نكون اضفنا شيئاً كبيراً على ما نحصله بالبداهة من مجرد سماع هذه الكلمة وحدها وهي الواجب . وما كان امر الواجب بالفكرة التي تدرك بالاكتساب او تتولد في الانسان مع الايام بل هي غريزية فيه طبيعية متمكنة من نفسه تمكن الحب منها ولذلك ترى ان رجل الخير وصاحب الخلق دائم الاهبة للقيام بواجبه

ولقد اعتاد الناس ان يقولوا ان اداء الواجب ايسر في كثير من الحالات من معرفته وهو قول حق يدعو كل واحد الى تعرف الواجبات التي يوجد بعضها مدوناً في الشرائع والنظامات وما بقي فهو من وحي العقل والضمير

وليس ما تقضي به الشرائع والنظامات الا الواجبات الاولية الجوهرية التي لا بد من ادائها لحفظ قوام الهيأة الاجتماعية . واليك بعض الامثلة من الوصايا التي تأمر بها الشريعة : لا تقتل لا تأخذ ما لقريبك . اكرم ابويك . كن اميناً ومعيناً لامرأتك . احسن تهذيب اولاك وتربيتهم ولا تهمل شأنهم . واذا عمل الانسان بهذه الوصايا فما يكون ابدع واغرب في الاستقامة والصلاح بل اتى عملا سائراً

اما الاداب فانها تحتم بواجبات لا تقل عن هذه قيمة وشأنا ولكنها غير مثبتة في نظام كما هو الحال في الواجبات الشرعية فضلا عن تعذر ذلك وان يكن كثير من القواعد الادبية مما يمكن جمع شوارده وتقييد اوابده . ومهما يكن فان للواجب شريعة خصوصية جلية يتحتم ان تكون احكامها دائمة التمثل امام اعيننا لنجعلها نبراساً نسترشد به دون تردد او تمهل . وهذه الاحكام تعتبر الاساس الادبي للحياة وعنوان كل شعب واللواء الذي يستظل به هذا اذا اراد ان يستقل عالياً في مركزه من المجتمع الانساني وان يسير ثابت الخطى الى الامام وان يكون مجيد التاريخ ابيض الصحيفة نقيها

وما هذه الاحكام بالتي يتسنى حصرها او جمعها في قانون على حدة ولكنها تتمثل جلية واضحة من فحص الانسان لواجباته الخصوصية

والان فما هي العقبات التي تحول في نفس الانسان دون تمثل هذه الواجبات او العمل بها وبعبارة اخرى ماهو الذي فينا يحارب هذه الواجبات

انها عقبات جمة واولها المصلحة الشخصية التي تشتد حتى تصير انانية ثم الشهوات والكسل والجبن . ونعم ان المصلحة الشخصية هي العدو الالد للواجب واذا كان للانسان صاحب الخير والارادة الصادقة من خطر يتقى

شره فانما يكون من تدخل هـذه المصلحة فيما تقتضيه البت في شوؤنه من مضاء العزيمة وصحة الهمة ومعاذ الله ان نعني بذلك ان المصلحة يجب ان نجعلها بمعزل عن اعمالنا فانما القول بهذا يكون من عبث الكلام ولغوه فضلا عن كونه من المستحيلات بل انه لامر طبيعي شرعي ان نهتم بمصلحة انفسنا وهو ما لابد منه ولكن المصلحة لا يمكنها ان تكون القاعدة الادبية لانه متى كان الواجب مخالفاً لها فالواجب هو الاحق بالاتباع بلا نزاع ولا اشكال

وان مبدأ المصلحة حتى ذات المعنى السامي منها على ما كان يتمثله ويصفه ابيقوروس لهو مبدأ ناقص شديد الخطر والاذى وخيم العاقبة على الهيأت الاجتماعية التي تجري على سننه وتعمل بمقتضى تعاليمه ولا مبداء الا مبداء الواجب لانتاج الخير الخاص والخير العمومي وانه لمن الخرق في الرأي والخطل الفاحش ان يتوهم الانسان انه يحسن خدمة نفسه اذا قصر التفاته الى مصلحته الخصوصية ولم يتخذ العدالة رائداً لها ولم يجعلها فدى للواجب

ولقد قال السير جون لوبوك الشهير (وهو الان اللورد افبوري) ,, انك لن تزيد ابداً مبلغ سعادتك باهمالك ما هو واجب عليك او التملص منه ،، ثم استطرد فقال ,, الرجل العاقل الحكيم الصالح من لا يقف متخاذلا امام المخاوف الحقيرة ،،

وعلى ذلك فالمصلحة ينبغي ان تبقى متخلفة عن الواجب هذا اذا لم يقض العقل باقصائها تماماً عن التدخل فيما يعول على مباشرته من الاعمال والشوؤن وهكذا يجب ان تكون الحال مع عواطفنا وشهواتنا التي هي اعداء قد تعترض الواجب وتحول دون اتمامه

البقية تأتي